اسبوع رشدي العامل في المدى الثقافي

احتراماً لذكرى الشاعر رشدي العامل ومنجزه الثقافي والشعري خصصت ثقافة (المدى) اسبوعاً كاملاً للاحتفاء به وسيكون هذا الاحتفاء لا عن طريق (كتابات تأتي وتذهب) بل عن طريق الشاعر نفسه، رسائله، مذكراته قصائده غير المنشورة وحواراته مع الذات والاخرين، وسيكون للقراء كل يوم حصة مفعمة بالشعر والذكريات من رشدي الشاعر والاب والانسان.

تنين الذكاء

رياض قاسم

معتقل خلف السدة

كان (يطغي) بجانبه.. مكث فترة ثم غادر.. بقيت حتى نهاية العام وخرجت.. تبعته الى العالم.

تلك الصحبة في ذلك المكان امتدت امتداداً اخذ حيز زمن وامكنة ووقائع.. منذ تلك اللحظة حتى لحظة واريناه الثرى ضمرت اشياء وتجددت اشياء.. غابت وجوه واستجدت وجوه.. ونحن على حالنا.

نسترجع انفسنا ونستكين لعاداتنا ولا يعرف عنا الا ما اعتدنا معرفته عن انفسنا وما أردناه لها ان تعرف.. المائدة التي تضمنا هي العالم قد يبدو العالم أوسع بل انه لكذلك حتماً ولكن عالمنا... عالمها كان هو العالم.. تلك المائدة الثابتة الأسماء المتغيرة المكان المفتقدة احياناً غيبة الموت أو السفر أو يضاف لها من تمتحن (مواصفاته) ليكون منا.

الادب.. الصحافة.. الانشغالات الاخرى على امتداد ما كان لها.. فالمائدة تفرض طقوسها وهي التي تتحكم بمجرى النقاشات واذا كان ثمة خروج على ذلك فهو الذي يتولاه عادة حين تجد نوازعه متنفساً لها بالاختلاف... بالزعل .. بالهجران.. كان المدلل وكانت حالة لا تناقش.. قد يغمز نزار عباس من هذا الاستئثار ولكن سرعان ما ينسحب قد يترك عبد المجيد الونداوي المائدة لاشهر ولكنه يعود.. فنقطة الارتكاز هي رشدي وهو الذي يقود سفينتها. قد ترتطم بالصخور.. قد تتهشم وقد تغرق اغلب الاحايين ولكن يعود قبطانها الذي لا تناقش قدرته. و(المائدة) هي المكان الذي لا يمكن فهم رشدي خارجه على الرغم من امتداداته وهي امتدادات وحزن وشقاء على الدوام ولكن ذلك يعبر عنه بتوصيف مبهم أو همهمات نعرفها نحن ونداري حزننا من قسوة الذي يعانيه ولا نجد له أي عزاء.

واخيراً ليست هنالك غير السخرية ولربما الضحكة الجذلى الآفكة التي تتوارى سريعاً ليحل محلها الاسى.

وفي النهاية سكن التذكر كل المسافة.. ثم افتقدنا كثيرين اسماء وصفات وحياة معيشة، ثم افتقدنا الموضوع وافتقدنا الوقت فصارت الأيام كلها ماضياً الا استيقاظات نادرة كمن يصحو لنفسه.. نعرفها بالذي يعيدها الى حالتها فنغرق بالبكاء.. لطالما بكينا..

رشدي .. رشدي.. هو الذكاء.. ذاك الذكاء المبهر الذي يتجلى في المناكدة باحسن اشكاله أكثر مما يتجلى في أماكن أخرى تجتاحه ولكنه الذكاء.. تلك النغمة النادرة اينما وجدته حتى لو كان ذكاءاً لذاته كان يفحم كل احد.. بكل محاججه بالسفسطة أو بالمنطق بالحجة الدامغة أو باللعب.. كان يدير ذلك بمهارة تقوى على جسده ومرضه وعجزه.. كأن لسانه ينفصل عنه.. يشتغل وحده كان تنين ذكاء.

في الادب.. رومانسياً كان.. هكذا، اعتاد الجميع التعامل مع نتاجه .. فليكن وماذا في ذلك وبتبسيط أكثر عاشقاً للاشياء متغزلاً بها..

اي ذلك ضير؟ لقد احب بطريقة تجسد الحب واندفاعه.. لقد عرفت عن بعد من احب لدرجة اننا نتصورها وهما ونتلمس اشباحاً ولكنها اشباح مهومة، اشباح توقظ على المائدة كل يوم اشجاناً لا تحد تنفلت شعراً وتأسياً.

حزينة عيناك ما للأسى.. يلهث فيها ما له حد

لقد كان رومانسياً في الشعر معاركاً في الحياة.. قد يبدو انشغاله بالتلمسات أكثر من العمق.. قد نتحدث عن هولدرلين فيتحدث عن اليأس ابي شبكة قد نتحدث عن ريلكه فيتحدث عن عمر بن ابي ربيعة.. قد يوحي ذلك للذي يسمع ويشاهد للمرة الأولى ان هنالك فروقات أو تبايناً في الفهم أو المعرفة أو إتعاب الدماغ ولكنه سيكتشف بعد حين يتدفق رشدي رقراقاً.. صافي الذهن.. مطلعا ومتابعا وفطنا.

نتذكر ذلك ونغور في خساراته وهناك قاع لا قرار له، خسارة وراء أخرى.. فقدان يليه فقدان فتتذكر كيف رأيت هذا الوجه الغريب عصر يوم بقميص برتقالي من قماش (الخاولي) وهو يحجز لوجاً لنفسه في سينما الخيام حيث يتمشى الى هنالك من مكان عمله في مجلة (١٤) تموز لنعيمة الوكيل حيث يظل هناك يكد دون ملل عدنان البراك.. ورشدي مستمتع بفلمه ووقته وبرودة الصالة التي يتابع الفلم فيها..ولكن لوحدته ايضاً.. تلك الوحدة التي لا تتجلى الا من خلاصة صحبته.. فهو يضيع منك احياناً ليضيع في حضوره.. ولكن سرعان ما يباغت الكل بتلك القوة العصابية كأنما يقفز متحدياً احداً داعياً اياه لمنازلته. من كان يقاتل؟ داخله ام الخارج؟.. ذكرياته أم واقعه؟!

رشدي شخصية تستحق اعتناء اكبر من الكتابة. ولكن العجالة هنا هي نتاج اضطرار لكتابة مادة صحفية. قد يعد احدنا نفسه في ان يتناول تلك الشخصية بالسعة التي عاشها وبالاهمية التي يمتلكها وبالموهبة التي لها ما يسوغها.

ليتني استطعت الان ان اجد نماذج قصص قصيرة كان يكتبها تحت عنوان (ليست قصة) هو السحر نفسه، سحر اللغة والانتباهة والقدرة الواضحة.

تلك التجربة التي تستحق قراءة جديدة ومعاينة جديدة لاكتشاف درب في الكتابة من هذا تميز بها رشدي ولاتنسى مثلما يظل رشدي كما عرفته في معتقل خلف السدة عام ١٩٦١ والزمن دورة كاملة لا يمكن النفاذ اليه منفصلاً ولا التسرب منه برغبة.

حزينة عيناك ما للأسى
يلهث فيها ماله حد

مذكرات رشدي العامل عن:

عاصمة الطرف الغربي
المقاهي - الاساتذة - القلعة

قريتنا، عاصمة اقصى الطرف الغربي من الوطن وكنا نلاحظ دون شعور بالمراقبة، كيف يستجيب القادمون لهذه الحياة، لانهم لا يملكون بديلاً وكيف تتوسع حلقات لعب الكونكان والدومينو في المقاهي المتوزعة في المحلات المختلفة. ان أي قادم جديد، حتى اولئك المدرسون الجدد، والذين يواصلون احلامهم، امداً قصيراً، بالعودة الى بغداد، وهم يجترون عذوبة ذكرياتهم في دار المعلمين العالية، وناديها الشهير، حتى اولئك، حتى اشدهم احتماءاً بمهارته الذاتية، لا يلبث ان يجد نفسه وقد استسلم لتلك الحياة الواهنة، الكسلى، المراوحة بين المدرسة والبيت والمقهى، في النهار امام السبورة، على دفق الضوء المشع الباهر في عذوبة الصباحات الساجية وفي الليل، تحت اضواء مصابيح الزيت الساطعة في المقاهي المتواضعة، وعلى الكراسي الخشبية او الخيزرانية المتهالكة التعبى.

لقد اقتادت المدينة خطى الاستاذ عباس كما اقتادت خطى المئات من قبل

و.. ذات ظهيرة!

كنا ننحدر من المدرسة من تلك البناية الحجرية على قمة جبل يعانق مرأى الفرات وهو يلتوي يساراً ناحتاً الصخور البيضاء في قاع الجبل المقابل، حيث تلوح بقايا قلعة راوة الاثرية، ذات الأشباح التي طالما ألهبت خيالات طفولتي المبكرة، عندما كنت طالباً صغيراً ادرج في مدرسة راوة الابتدائية.

ولقد فكرت باستمرار:

القلعة الاثرية في راوة، بقية، بل البقية الوحيدة من عهد السيطرة العثمانية السوداء على وطني..

والمدرسة الثانوية في عنه، احدى اقدم الثانويات في العراق بناية قديمة نرتقي اليها في زمهرير الشتاء القارس، تتخثر الدماء في اناملنا القابضة على مقودات الدرجات الهوائية ناتي اليها من اقصى مدينة عنه، ويعبر اليها زملاؤنا بين الفرات البارد العريض من راوة، ونلتقي كل يوم، كل صباح، تصفع وجوهنا الفتية الريح الباردة الزمهرير، خلال النوافذ مهشمة الزجاج.

ذات ظهيرة.. كنا ننحدر، مخدرين من التعب الصبي، التعب الذي لا يعرف التعب وكان الاستاذ عباس بيننا، نلتف حوله، فقد رافقناه بعد آخر دروس ذلك اليوم.

لا اذكر كيف استطاع ان يزرع في أذني وشوشة ما غير اني عندما افترقت عنه مع بقية زملائي شعرت اني داخل حلم بهيج.

في ذلك المساء لم اقرأ شيئاً. شغلني التفكير فقط: رباه.. ايمكن ان يكون هذا؟ يا للسعادة! ان القضية هنا ايضاً حقيقة مؤكدة، فالاستاذ عباس منا. لقد احسست بهذا متى؟ لماذا؟ لم اعرف ولم اعرف حتى اللحظة ذلك السر الذي ملأني حضوره انما كنت متأكداً ان هذا المدرس الهادئ، المبتسم الذي يشيع درسة الفيزياء على مشقته فضولاً وحرارة داخل غرفة الصف الجصية- الحجرية الباردة ان هذا المدرس يرتبط بالقضية حتماً انه يرتبط بها بشكل ما فقد كان لا يترك فرصة تمر، دون ان يحاول التأكيد على ان العلم والعلم وحده وعلم الفيزياء بشكل خاص، هو الذي يحمل مستقبل الانسان عبر كشوفاته المستمرة، كان يربط، بذلك التفاؤل الحاذق الدقيق- على ما تختزن ذاكرتي- بين تطور العلم وطموح البشر ولم يكن صعباً علي ان اتطلع، خلال سنوات التفتح الاولى، الى ما تحمله، الآمال العظيمة من بشائر مستقبل جديد للانسان.

وهكذا، استعدت في تلك الامسية لاذعة البرد، امام موقد النار، وخلال ألسنة اللهيب، ورائحة الدخان وثرثرة الآخرين ونحن نسمر في احدى غرف الدار القديمة، ما قاله لي رؤوف من ان احدهم سيتصل بي في المدرسة وان علي ان اكون مطمئناً اليه.

رؤوف معلمنا القديم الذي شاهد براعم طفولتنا، في المدرسة الابتدائية احد ابناء المدينة- القرية عرفته طفولتنا المبكرة، وعرفه صباناً وفتوتنا وجه ثر الطيبة، مهموم دائماً، ومبتسم دائماً، كيف؟ لا ادري.

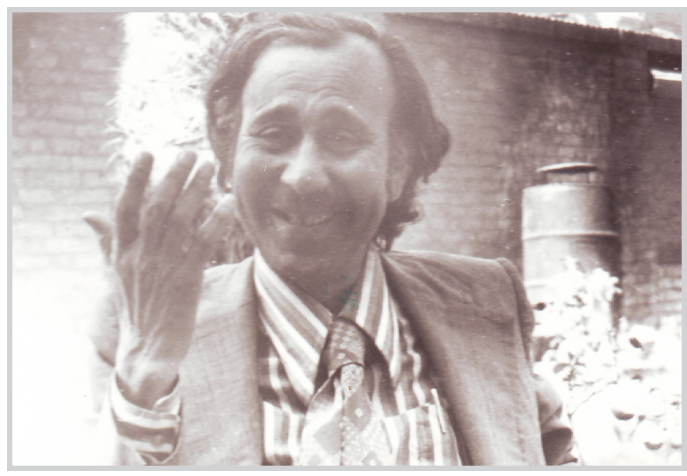

كانوا يعتبرونه شخصاً خطيراً ينبغي الابتعاد عنه غير ان التحذير لم ينفع اكثر من ازدياد قربنا منه وحتى بعد ان عرفنا هويته، التي لم نكن نعرف ما تعنيه لم نفعل اكثر من زيادة الاستئناس له.

رؤوف انكفأ، في تلك الفترة السوداء التي اعقبت اعدام قادة الحزب، واخذ الناس يحاولون عدم الاختلاط به غير ان العلاقات الأسرية الوطيدة، تلك الروابط الموغلة في القدم في قريتنا العريقة، اذابت كثيراً من جليد الحذر، وعندما بدأت اولى محاولات التجمع لتشكيل نواة جديدة في قريتنا كان واضحاً ان رؤوف يقف وراءها وفيما بعد اخبرني خلال اجتماع عابر ان احدهم سيتصل بي، وكان هذا "الواحد" هو مدرس الفيزياء الغريب القادم من بغداد.

في الايام الاولى، شعرت ان نسغاً جديداً يمد عروق شجرتنا بالغذاء، ويدفعها الى النمو، النسغ الجديد، ببساطة كان دم مدرس الفيزياء.

لقد راقبنا، بفرح، تطور حلقاتنا التنظيمية، غير ان الشيء الهام.. الاكثر اهمية من سواه هو ربط تنظيمنا بالتنظيم المركزي في بغداد. كان الاستاذ عباس دائم الانشغال بهذه القضية.

وقد جاءت هذه الفرصة سريعاً.

فقبل العطلة الربيعية، استطعت اقناع أبي بان ازور اقاربي في بغداد وقد وافق بعد ممانعات عابرة وهكذا فلم ينقض يوم واحد من العطلة، الا وكنت داخل سيارة اجرة، في طريقي الى الرمادي.

حتى الآن، ونكهة تلك الرحلة تملأ مذاق سنوات عمري التي قضيتها مع القافلة.

في الرمادي، قضيت الليلة في ضيافة آل عريم وبت ليلتي، في دار المرحوم عبد الحميد عريم، لقد كان صديقاً حميماً لأبي، كما كان منذر صديق طفولتي، وظل صديق شبابي وكهولتي، حتى الان.

صباح اليوم التالي، اصر منذر على اصطحابي بسيارتهم الى بغداد.

وهكذا انطلقنا على الطريق.

من يوميات الشاعر

سعدي وهاملت والمرأة

١٩٧٧/٤/١١

الساعة الثانية صباحاً

امس التقيت سعدي، كانت جلسة ممتعة، مؤلمة، فما يزال الشاعر قريباً بعيداً.

قال لي، انه لن يكتب سوى الشعر، هذا هو عزاؤه الوحيد. طمأنت مشاعره، واحسست انه يعاني عذاباً عميقاً، في انه بعيد عنا، وانه يشعر بغربة حقيقية.

"ما الذي استطيع ان افعله من اجلك يا سعدي؟"

كنت اسأل بالحاح:

- لا شيء يا رشدي، لا شيء ابداً سوى ان نظل اصدقاء.

لقد تهشم شيء ما في نفسه، هذا الشاعر الرائع الذي قضيت معه سنوات العمر الجميل، سنوات الشباب الذاهب، كنا اصدقاء كأغلى ما تكون الصداقة، وكنا رفاقاً نمارس تجربتنا في الحركة الثورية، بذلك الايمان المتصوف، عندما وهبنا كل ما لدينا من حب وفكر وتطلع الى الحزب.

سألني عن حفلتنا، في ذكرى تأسيس الحزب، كان متلهفاً لمعرفة كل شيء، يبحث عن ادق الاشياء، اخبرته ان مكانه كان معنا، ابتسم بحزن، اخذ العدد الخاص بلهفة:

- سأحتفظ بهذا العدد.

- لماذا لا تعود سعدي؟

اطرق قليلاً، وبدأ يتحدث عن خيبة امله في كل شيء.

- ومع هذا، فان الحياة جميلة يا صديقي.. خذني مثلاً.. لقد فجعت كأشد ما تكون الفجيعة، بالمرأة التي احب، ومع هذا فانا اواصل الحياة بذلك الشغف الذي تعرفه، احياناً اشعر بالغبن مع نفسي لاني لم اقدم حتى الان كل ما اقدر عليه، لقد جرى الحوار هادئاً حميماً وحقيقياً، غير ان سعدي ظل غير قادر على الموازنة، بين توقه للعودة الى الحزب، وبين شجونه الخاصة.

تذكرنا اصدقاءنا الذين رحلوا الى الابد، كان الحزن رفيقنا الناعم الجميل، ذلك الحزن الذي لا يعدله شيء في العالم كان يريد له ان يغدو نهائياً، اما عندي -اخبرته- فينبغي ان يكون ينبوعاً ارفد منه المستقبل، لاستطيع ان اهب من اجله الاكثر.

- هذا صحيح.. اما انا فقد انتهيت للاسف.

قلت

- انك لم تنته ابداً، لانك لا تستطيع.. اننا جميعاً ننتظر ان تعود لنا، كما كنت ابداً احد ابرز شعراء الحزب ومثقفيه.

شعرت ايضاً، انني قصرت كثيراً فقد كان ينبغي ان اكون معه باستمرار، وان لا اترك الناس الصغار، يفسدون عليه المستقبل، انه يحس بفرح حقيقي عندما يلقاني، تعود اليه تلك البهجة التي يحسها شاعر كان مناضلاً ثورياً.

ينبغي ان يعود الينا سعدي، وبأي ثمن، ان احداً في صفحة "ثقافة" لا يستطيع ان يحل مكانه، هذا هو رأيي النهائي، الذي ساكتب عنه بالتفصيل فيما بعد.

❖❖❖

الساعة تقترب من الثالثة الآن، الاطفال نيام، والضوء الشاحب في الغرفة يلقي على وجهيهما نعاسه، وانا وحيد، مثل ذئب جريح في الغابة.

ماذا يستطيع الأنسان ان يصنع ازاء الحياة؟

"لقد قتل ما كبث النعاس، النعاس البريء"

سأحاول ان اهرب فترة من الزمن، افكر ان اذهب الى مدينتي الاولى، الى تلك القرية المهجورة على ضفة الفرات، اسمع نشيج النواعير، واسبح في النهر واجدف في زورق صغير، واستلقي على رمال الجزر المهجورة، واتذكر المرأة التي احب، وابكي قليلاً.

١٩٧٧/٤/١١

الساعة الرابعة والنصف

انت تلومني، لانني اقف حائلاً بين اطفالي وامهما.. ايضاً تتهمني بالتخلف لهذا الموقف.

حسناً

لقد ظلت، تلك المرأة، على الحاحها بان تلقى اطفالها، وانا -اذا كنت لا تدري- لا امانع ابداً، غير انني لم استطع حتى الان اقناعهما بان يتجاوزا الوضع الذي نشأ عن انفصالي عنها، وان يسمحا لها برؤيتهما.. ان كل محاولاتي تبدو ضرباً من المستحيل.

كانت التجربة الاخيرة لها، تجربة مريرة. لقد كان علي رجلاً حقيقياً -اذا شئت- كان رجلاً صغيراً غير انه يعرف كل شيء عن ام تترك اطفالها وزوجها لتلحق برجل آخر..!

وكما ان الاخلاص لا يتجزأ، فان الخيانة ايضاً غير قابلة للقسمة ولا للفرز، هذا هو رأيي الذي آمنت به ابداً.

ان الحياة عادلة دائماً، انها تمنح العقاب الملائم في اغلب الاحيان وقد اعطت وستعطي ذلك العقاب لتلك المرأة.

هل قرأت "هملت"؟

وماذا كان نصيب الام في نهاية الامر، سوى خنجر في صدرها؟.. ان هملت هو الابن الذي طعن الصدر الذي ارضعه، هل تذكر هذا؟ اما اوفيليا، فكانت الصبية التي لم تعد تعرف شيئاً، سوى ان تغني للاشباح!

الجرح الذي بين وعيي ومشاعري نهر لا استطيع عبوره، وللاسف ان كل الكتب التي قرأتها، تغدو شاحبة الحروف ازاء الطعنة التي نالت من الانسان الذي كنته ذات يوم.

انت -ربما- لا تدري أية لهفة كنت اعود بها الى بيتي، لا تعرف ذلك الحب، ولا تلك الصباحات الجميلة، والليالي المسعدة الطويلة.. القصيرة! لا تعرف كم منحت لامرأة اكتشف اخيراً انها لم تكن لي! هل تعرف اذن، عذابي؟

الجذور

البحر يقذف ساكنيه
موتى، وصيادو محارٍ في كهوف الثلج
بحارون، صبيان
بنات في ركاب الجند
مومسهن قرصان
وانساهن عرافو الحصى ماء العماد
الارض تمسحهم
وتدفنهم وتلقي بالركام على الركام
وتتم دورتها
فلا الغرباء جاءوها ولا الريان عاد
الله يا سفن الرجال العائدين من الملاجئ والخيام
ومن الظلام الى الظلام
والى شباك الموت، حيث الشوك
والطاعون، والدم، والجراد
كيف احترقت على تلال الموج
من يطفئ الحريق اذا استحال الماء زيتاً
والبحار تحولت آبار بترول
وصار الزرع كوماً من رماد
الله يا بلد المتائر والحفائر
والتكايا، والكبائر
الله يا حقل الازاهر والخناجر
نهر المواويل الحزينة
والدماء الماء
والحزن المهاجر
يا بابل التاريخ،
ماذا في الثرى غير الحفائر
نضبت عيون الماء
وانطفأت قناديل الضمائر
صدئت مفاتيح القلوب
وأيبس العطش الحناجر
وتجمدت فوق الشفاه قصيدةٌ في قلب شاعر
الارض تطعم ساكنيها الخبز من طين المقابر
والارض تسرف في العطاء
ملحاً.. وخبازاً، وماء
والارض طيبة
واكرم ما لديها
أن يمنح الاحياء من دمها
وتسقى غرسها من مقلتيها
والارض صابرة
تديف شرابها الدامي
وتختزن الشقاء
وترب اثداء النساء
بالماء والنسغ الخبيء
اذا تباخلت السماء
والارض جذلى
تغسل الاوراق والاحزان
تمسح عارضيها
بالظل، بالقداح،
والاثداء من شفة الجراح، وبالدماء
والارض كاظمة
تخبئ غيظها العاتي بضحكة ناظريها
والارض عاتية إذا ارتجفت
وحمت بالقضاء
قذفت مناجمها
ومن في جوفها يثوي
ومن يمشي عليها
البحر يقذف ساكنيه
والارض تهجر ساكنيها
والارض غاضبة
قلت عشاقها، ورمت بنيها
فالزرع مات،
وجفت الاثداء
وانتحرت من العتم القصائد
مشلولة الكلمات
والاجراس خرس في المعابد
والارض صامتة
كأن ربيعها ما مر فيها
❖❖❖
البحر متكئ على امواجه بين الصخور
والارض بعد متاهة الطوفان ما برحت تدور
ألقت طحالبها على النيران
واجتثت من الشجر البثور
وجرت منابعها، فعمدت الصحارى والثغور
مرت بها الافلاك عابرة
واسراب الطيور
فالارض ضاحكة تنادي اهلها
آن العبور
يا أيها الاحياء
ان الارض مملكة السماء
والارض قانون السماء
والارض محكمة السماء
والارض..
ليس هناك غير الارض
فردوس السماء
❖❖❖
والارض أرث، ايها الابناء،
أرث الابداء

دعوة

كانت له عذوبة المساء
وبرح همس الضوء في الفجر،
ولطف الماء
يسألني: تأتي الينا
لو اتى الشتاء
نذهب للعشار
هناك نصغي،
ونصيد السمك النهري والاشعار
ونذكر الأسماء
❖❖❖
كيف يذوب الشوق في الاعماق
ويستحيل الليل فجراً
في فم الأعذاق
كيف أداري خجل النظره
والزهو في السعف،
وضوء الشمس في الزهره
والخجل البصري، يا سمره
❖❖❖
سرنا على الدرب طويلاً،
نأكل الاعشاب
جزنا حقول الموت،
غنينا وروت دمنا الاعناب
في البرد،
تحت الريح،
بين الرمل والخضرة
والنخل، جئنا نرفع الأنخاب
ونحمل القربان للبصرة
❖❖❖
تأتي الينا
نجرح الظلمة بالنهار
ونشرب البحر
ونستلقي على المحار
ونأكل الجمار
ونزرع الاغنية السمراء في القيثار
وننطفي..
في جذل البصره

١٩٨٧